# الكلام المستقيم في النظر النحوي عند سيبويه
# (دراسة في المصطلح واستعماله)

**د. لطيف حاتم عبد الصاحب الزاملي**
**كلية التربية- جامعة القادسية**

**الخلاصة :**

هذا البحث-فيما نحسب- محاولة لقراءة واعية في جانب من جوانب النظر النحوي عند سيبويه، تكشف عن منهجية متقدمة في النظر والتحليل عرفها النحو العربي منذ بواكير نشأته الأولى.

فثمة أصول فهم واعية لسير النظام اللغوي وجريانه بحسب أسس ملحوظة في البناء والدلالة أدركها سيبويه عند وضع النظام النحوي. فقد اراد سيبويه لهذا النظام ان يجري على الصورة التي يسير عليها الفكر في الطبيعة والحياة، فتلمس اليه وسائل تحليل دقيقة وشاملة تساوق بين معطيات النظام الداخلي للغة، ومواقف استعمالها.

واللغة ظاهرة اجتماعية، ومنطق يسعى دائماً الى الانتظام والاتساق والتناسب، ويرفض العبثية، وفي نظامها تذوب جميع الدلالات المنقولة من مجالها الطبيعي الى مجال اللغة الاصطلاحي. وعندما نقل سيبويه مصطلحات تقويم البنية من باب التقويم الاجتماعي والأخلاقي إلى باب النحو صارت- اصطلاحاً- جزءاً من منهجه في تقويم كل بنيه لغوية والحكم عليها.

وقد تابع هذا البحث مصطلح (المستقيم)، واستعماله عند سيبويه، وما يرتبط به من دلالات اصطلاحية استعملت لتقويم التراكيب النحوية بحسب قدرتها على تحقيق التواصل بين المتكلم والمخاطب من عدمه. فجميعها خضعت لمعايير التقويم النحوي التي أسس لها سيبويه في مقدمة كتابه في باب الاستقامة من الكلام والإحالة.

**المقدمة :**

انصبت عناية سيبويه على المعاني، فكانت وكده وغايته في الوصف والتحليل. لذلك استعمل مصطلحات ذات غايات دلالية، حدّد بها الأوجه المقبولة للتراكيب النحوية المختلفة. وقد تفاوتت تلك الاحكام بحسب تفاوت التراكيب في بنائها، ودلالتها، ولكن الفيصل في الحكم عنده قدرتها على تحقيق التواصل.

ولا غرو في ان ينشغل سيبويه بالمعاني؛ لانها القيم العليا السائدة في عصره. فالبيئة التي عاش فيها كانت تحكمها مبادئ اخلاقية وعرفية تحتم الالتزام بها. ويقيّم السلوك بدرجة الاقتراب، او الابتعاد من هذه القيم.

ويبدو ان التصور المسبق لاجتماعية اللغة قد سيطر على تفكيره، فاستوحى من ذلك الفكر معايير التقويم لينقلها الى باب النحو، ويجعلها معايير لتقويم كل بنية لغوية. وعندما انشغل سيبويه بوضع نظام للنحو لم تكن تلك المفاهيم بعيدة عن نظره، بل سيطرت على منهجه، وصارت جزءاً منه، فاسس لها في مقدمة كتابه بباب سمّاه (باب الاستقامة من الكلام والاحالة)، ثم اطردت في منهجه التحليلي عند توجيه المسائل النحوية المختلفة.

وقد تلمس سيبويه الى هذه الاحكام وسائل نظر دقيقة تسبر غور الظاهرة المدروسة، وتحيط بكل علاقاتها، مؤشراً منهجية متقدمة في الوصف والتحليل تعدّ الشرارة القادحة في الدرس اللساني عند العرب، وتماثل طرائق التحليل عند اللغويين المعاصرين اليوم.

وسنحاول في هذا البحث الكشف عن تلك المنهجية بدراسة واحد من هذه المعايير، وتتبع أصنافه، وصفاته، وإحكامه، واستعماله في كتاب سيبويه.

**اولا: مصطلح (المستقيم) تطوراً ومفهوماً:**

قد تتداخل العلوم المتقاربة في توظيف المفهومات الدلالية، عند النظر في امور تتوحد مفهوماتها. ولكن طبيعة الاستعمال قد تخضع لنظام الحقل المدروس بوصفه جزءاً من بنية عامة.

وقد لايصح في مجال الفكر أن تجرّد الظاهرة المعينة –موضوع الدرس- من اثر ما يلابسها، ويفرض ظلاله عليها.واللغة –كما نعلم- هي أداة نقل الفكر، ولها قدرة على استيعاب افرازات الوجود بكامله، والتفاعل معه.

ولما كانّ الوجود كيان منتظم يرفض الاختلاف بوصفه مخلوقاً بحسب نظام مقدّر، فأنّ المنطق الفطري الطبيعي، والمنطق المكتسب يرفضان التناقض، والاختلاف حساً وادراكاً. وقد عبّر القرآن الكريم عن هذه الفكرة بقوله تعالى: ((أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً))[١].

ولا شك في انّ الثقافة التي نشأ في كنفها سيبويه ثقافة اسلامية تستمد مقومات وجودها من القرآن الكريم، والسنّة المطهرّة.

وهذه الثقافة بلا شك تسعى الى انشاء بنية سليمة، غير متناقضة منضبطة باحكام، وتسير على وفق نظام مؤطر بدلالات الاستقامة.

قال تعالى: ((اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ))[٢].وقال جل علاه: ((فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ))[٣] وقال سبحانه وتعالى: ((وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً))[٤].

لذلك نجد تجليات دلالة هذه المادة وما يشتق منها ظاهرة بينة في توجيهات سيبويه من نحو: المستقيم[٥]، ويستقيم[٦]، ولم يستقم[٧]، ولا يستقيم[٨].

ويبدو أنّ هذه المصطلحات من أسس نظريته في توجيه الكلام والحكم عليه؛ وذلك عندما ثبتها في مقدمة كتابه، اذ عقد لها باباً سمّاه: ((باب الاستقامة من الكلام والاحالة))[٩]. وفيه جعل الكلام على صنفين هما: المستقيم، والمحال. وتجلت دقته في استقصاء الدلالات الدقيقة لكل مصطلح؛ اذ لم يكن لديه المستقيم صنفاً واحداً فحسب، بل هو على أصناف فمنه: المستقيم الحسن، والمستقيم الكذب، والمستقيم القبيح. وكذلك المحال، فمن الكلام ما هو محال، ومنه ما هو محال كذب[١٠].

وهذه المفردات هي في الأصل مفردات أخلاقية، ومعايير لتقويم السلوك الاجتماعي نقلها سيبويه إلى باب النحو، واعتمدها مقاييس لتقويم جميع السمات البنيوية في العربية من مستوى الفونيم إلى مستوى الجملة[١١].

وحري بالذكر هنا أنّ اجتماعية اللغة تصوّر سابق عند سيبويه، وأصل من أصول فهمه اللغوي؛ لذلك عامل اللغة معاملة السلوك الاجتماعي، وبنى جميع تحليلاته على وفق هذا الفهم، يقول ميخائيل كارتر: ((ويتعامل سيبويه مع اللغة على انها شكل من السلوك الاجتماعي، فيتبنى المقاييس الاجتماعية السائدة في عصره في تقويم مستوى الصواب في اللغة على جميع مستويات التحليل اللغوي: فمصطلحاً (حسن) و(قبيح) يشيران الى الصواب البنيوي، على حين يشير مصطلحا (مستقيم) و(محال) الى مدى قدرة المتكلم على التواصل ضمن تقاليد المجتمع))[١٢].

فهذا الاستنتاج الدقيق الذي استنتجه الاستاذ كارتر يشير الى منهجية متقدمة عرفها النحو العربي منذ ذلك العهد المبكر؛ اذ تنبّه سيبويه على الوجوه المستقيمة، والوجوه المستحيلة في التراكيب اللغوية، منطلقاً من مبادئ منهجه التحليلي الرابط بين نظام اللغة، ومواقف استعمالها. فوضع احكاماً، وضوابط لوصف الكلام بالاستقامة، او بالاستحالة، تبعاً لملابسات الاستعمال اللغوي من (المتكلم، والمخاطب، وموضوع الكلام، وظروف القول))، فضلاً عن استقامة البناء النحوي بارتصاف عناصر التركيب وانتظامها على وفق ما تجيزه مواضعات اللغة، وما يجيزه نظامها الذي تعارف عليه اهلها، والذي يحقق غايتها في الابلاغ والتواصل. لذلك جعل سيبويه الكلام المستقيم في اعلى مراتب الكلام؛ لانتظامه شكلاً، وصدقه معنى. يقول كارتر: ((فيكون احسن ما يقابل مصطلح مستقيم ان يكون صحيحاً ضمن معنى (ملائم او مناسب او صائب اجتماعياً)؛ لكون اللفظة تعبّر عن واجب المتكلم في ان يكون مفهوماً؛ ومثله مصطلح محال الذي يفضل له ان يؤخذ على انّه يعني (حظاً)؛ لكونه يشير الى الفاظ لا يمكن ان تصلح للتواصل))[١٣].

وهذا يعني انّ اوّل مزية للكلام المستقيم هو الاستعمال الصحيح بحسب ما تعارف عليه ابناء البيئة اللغوية الواحدة ليحصل الفهم المطلوب من الكلام المستعمل، وهو مبدأ واقعي أقرّه البحث اللساني المعاصر أي: ((أنّه في وسط اجتماعي متجانس السكان نجد انّ للغة شيئاً من الوحدة، بل انّه لشرط أساسي لوجود اللغة ان يحرص من يتكلمونها على استخدام وسائل التعبيرنفسها. وهذا ما يدركه افراد كل جماعة محددّة .

فالخروج عن جادة اللغة يثير من يسمعونها، ويعرّض الخارج الى السخرية –على الاقل..وعالم اللغة لابد له ان يحدد ما تتكون تلك الجادة؛ ليرى الى أي حدّ يقترب منها من يتكلمونها، والى ايّ مدى يمتد سلطان كل لغة))[١٤]. فانّ هذا النوع من التحليل لم يكن خافياً على نظر سيبويه، بل هو أصل من أصول التحليل لديه، ويرّد اليه كلّ ما يخالفه، طالباً اطراد الحكم، ((وهو يوافق فيما صدر عنه في الكتاب ملاحظات كثيرة مما تنبني عليه الوظيفيّة، ومناهج التوسيع، او اللغويات الخارجية بعبارة دي سويسير))[١٥]. اذ ((كان يمارس بوعي نوعاً من اللسانيات البنيوية لم تكن معروفة في الغرب حتى القرن العشرين، على الأقل فيما يخص هذا القسم من تحليله النحوي))[١٦].

لذلك ركّزسيبويه على الاستعمال والتداول اللغوي كثيراً، ودعا الى اعتماده طريقة في الحكم على صحة تركيب ما، او غلطة، وقد أشار الى هذا في باب ((ما يضمر الفعل المستعمل اظهاره بعد حرف))، اذ قال: ((واعلم انّه ليس كل حرف يظهر بعده الفعل يحذف فيه الفعل، ولكنّك تضمر بعد ما أضمرت فيه العرب من الحروف والمواضع، وتظهر ما اظهروا، وتجري هذه الأشياء التي هي على ما يستخفون بمنزلة ما يحذفون من نفس الكلام، ولمّا هو في الكلام على ما اجروا...فقف على هذه الأشياء حيث وقفوا، ثم فسرّه))[١٧]. وهذه دعوة واضحة للالتزام بوسائل التعبير نفسها التي اعتمدها العرب. ومنه اشارته الى النقض بين زمن الفعل والظرف، قال: ((وتقول: والله ما اعدو ان جالستك أي ان كنت فعلت ذاك، أي ما أجاوز مجالستك فيما مضى. ولو أراد ما أعدو أن جالستُك غداً كان محالاً ونقضاً، كما انّه لو قال: ما أعدو أن أجالسك أمس كان محالاً.

وانما ذكرت هذا لتصرف وجوهه ومعانيه، وأن لا تستحيل منه مستقيماً، فانه كلامٌ يستعمله الناس))[١٨].

وواضح هنا أنّه يضع أصولاً للاستعمال يحتكم اليها في معرفة صحة التركيب من غلطه وفقاً لاستعماله ودلالته، وليهتدي من يتعلم لغة العرب الى نظامها وطرائق استعمالها.

**ثانياً: صفات الكلام المستقيم، واحكامه، ودلالاته:**

المتتبع لمنهج سيبويه في كتابه يرى ان مفهومه للجملة قد بناه على تصورين هما: التصور البنائي، والتصور الدلالي[١٩].

ويبدو ان التصور الدلالي هو الراجح عنده على التصور البنائي، فقد يصح التركيب بناء؛ الا أنّ دلالته تخالف الواقع فيخرجه سيبويه من باب المستقيم الحسن الى باب المستقيم الكذب. وهذا ما عدّه ثعلب (احمد بن يحيى) عيباً على سيبويه كما ينقل الزبيدي في طبقاته قوله: ((...وانما لحق سيبويه الغلط؛ لانّه عمل كلام العرب على المعاني وخلى عن الالفاظ، ولم يوجد في كلام العرب، ولا أشعار الفحول الا المعنى فيه مطبّق للاعراب، والاعراب مطبّق للمعنى))[٢٠].

وهذا النقد يؤشر الاختلاف في المنهج بين سيبويه وما جاء بعده من النحويين. فالنحويون بعد سيبويه اكتفوا بمعرفة الاعراب؛ لانه ينسجم مع متطلبات تعليم النحو في عصرهم. في حين انّ سيبويه اهتم (بالخُلف)، وهذا الخُلف هو الدلالة والسياق يقول كارتر: ((فهدف سيبويه ان يقدّم وصفاً كاملاً للعربية؛ الا انّ مما يؤسف له انّ من تبعه من النحويين حوّلوا انجازه ذاك الى اتجاه معياري صارم في النحو العربي ما زال يعدّ السمة السائدة حالياً لمجمل الدرس النحوي))[٢١]. لذلك نجد ان سيبويه وجه نقداً لمعاصريه قبل خالفيه لانشغالهم بالاعراب وحده دون الخُلفْ، قال: ((فانّ النحويين مما يتهاونون بالخُلف اذا عرفوا الاعراب))[٢٢].

فقد تعامل سيبويه منذ ذلك العهد المبكر مع الجملة على انّها ((جزء من سياق كلامي موصول، ونراه يتجاوز النظرة اليها في ذاتها، ويمّد بصره إلى ما حولها من عناصر السياق الكلامي))[٢٣].

من هنا نرى ان الدلالة كانت وكده نحو الاستقامة، من دون اهمال البنية التركيبية للجملة؛ لان وكده الأساسي هو وضع نظام نحوي متسق لفهم الكلام تركيباً ودلالة. فلقد تتبع سيبويه انتظام الاشكال اللسانية بناءً ودلالةً، ومدى ملاءمتها للواقع اللغوي، ولما يسمح به المنطق الطبيعي والمكتسب.

فاذا انتظمت عناصر التواصل في الخطاب (المتكلم والمخاطب والموضوع) على وفق ما تقتضيه مواضعات اللغة وتجيزه، كانت الحاجة كبيرة إلى تدخل العقل في تنظيم العلاقات بينها، والحكم على صحة التراكيب او غلطها[٢٤].

من هنا نرى سيطرة التصور الدلالي على التصور البنائي في تحليل سيبويه للظواهر اللغوية؛ لان المظهر المتحقق للغة هو اجتماعي عقلي على رأي دي سوسير[٢٥]. فلذلك جاءت احكامه على الكلام في معيارين متناقضين هما: المستقيم، والمحال. فالمستقيم هو المعيار المحقق لوظيفة الكلام ابلاغاً؛ لكونه مفهوماً. واما المحال فيتعذر قبوله وفهمه لمناقضته الواقع اللغوي. وكلاهما يرجع إلى السياق المعنوي لا السياق التركيبي.

فسيبويه –مثلاً- يفسر الكلام المستقيم والمحال دلالياً بقوله: ((فاما المستقيم الحسن فقولك: اتيتك امس، وسآتيك غداً، وأمّا المحال فأن تنقض اوّل كلامك بآخره فتقول: أتيتك غداً، وسآتيك أمس))[٢٦].

فعلاقة الظرفية تتحقق في مثالي المستقيم؛ لان الظرف يحتوي المظروف دلالياً. في حين اننا نجد تناقضاً بين الظرف والمظروف في امثلة المحال؛ لاستحالة العلاقة الظرفية. وهذا له اثر كبير في تقرير القبولية النحوية عند سيبويه. وبهذا يكون المستقيم هو التركيب (الصحيح) لاتساقه مع الواقع، وامّا المحال فهو التركيب (الغلط)؛ لتناقض اجزائه، وتعذر ابلاغه. وان اوّل ما يلاحظ على استعمال هذين المصطلحين (المستقيم، والمحال)، انهما يتعلقان بالصدق الاخباري من عدمه، أي: قدرة المخاطب على فهم الخبر بتعاونه مع المتكلم. هو الآن مبدأ أساسي من مبادئ المدرسة الوظيفية. يقول غرايس. وهو من العلماء الوظيفيين: ((اجعل مشاركتك على النحو الذي يتطلبه، في مرحلة حصولها، الغرض، او المآل المسلّم به من التخاطب المعقود))[٢٧]. وهذا ما أكده سيبويه في اغلب تحليلاته، في انّه يرى انّ القصد لا يتحقق من الكلام ما لم يفهم المخاطب كلام المتكلم، والاّ لاستحال ذلك الفهم. قال سيبويه: ((...وذلك انّ رجلاً من اخوانك، او معرفتك لو اراد ان يخبرك، عن نفسه، او عن غيره بامرٍ فقال: أنا عبد الله منطلقاً وهو زيد منطلقاً، كان محالاً؛ لانه انما اراد ان يخبرك بالانطلاق، ولم يقل هو، ولا أنا، حتى استغنيت انت عن التسمية، لان هو وأنا علامتان للمضمر، وانما يضمر اذا علم انك عرفت من يعني. الا ان رجلاً لو كان خلف حائط، او في موضع تجهله فيه فقلت: مَنْ أنت؟ فقال: أنا عبد الله منطلقاً في حاجتك كان حسناً))[٢٨].

ولكي نقف على المفاهيم الاصطلاحية لكل مصطلح استعمله سيبويه للحكم على استقامة الكلام من عدمه، لابد من ان نلاحظ مواضع استعمالها، وما تفرزه من دلالة واضحة تمنع التداخل الاصطلاحي.

فلفظ (المستقيم) وحده من دون ان يلحق به صفة معينة يشير إلى بنية مفهومة، وان لم تخضع لضوابط التأليف النحوي وقواعده الصحيحة. يقول سيبويه: ((ويحتملون قبح الكلام حتى يضعوه في غير موضعه؛ لانه مستقيم ليس فيه نقض. فمن ذلك قوله:

صَدَدْتِ فأطولتِ الصُّدودَ وقلّما وِصالٌ على طولِ الصّدود يدومُ

وانما الكلام: وقلّ ما يدوم وصال))[٢٩].

اما صفات المستقيم عنده فهي ثلاثة: فأما ان يكون حسناً، او كذباً، او قبيحاً. فالمستقيم الحسن ما تخلق بمزايا تركيبية ودلالية من نحو: بناء نحوي سليم، ووضوح الدلالة، وعدم مخالفة مضمونه، او خارجة للواقع اللغوي في البيئة المعينة، مثلما اشرنا إلى ذلك في علاقة الظرف بالمظروف أي بزمن الفعل المستعمل من نحو: سآتيك غداً.

وأما المستقيم الكذب فما كان بناؤه صحيحاً، ودلالته نقيض الواقع، نحو قوله: ((حملت الجبل))[٣٠]. فالفعل (حمل) لا يتوارد دلالياً مع الجبل، فلا يتحقق الصدق الإخباري.

واما المستقيم القبيح فدليل على بناء نحوي غير سليم، ومخالف لقوانين التأليف النحوي، ولنظام اللغة المرتكز في اذهان ابنائها. قال سيبويه: ((ولو قلت ائتني ببارد كان قبيحاً، ولو قلت ائتني بتمرٍ، كان حسناً، ألا ترى كيف قبح ان يضع الصفة موضع الاسم))[٣١].

ومن كلّ ذلك نفهم ان العملية اللغوية خطاب يستلزم الاتفاق بين طرفي الخطاب. فاذا اعرض المتكلم عن النظام اللغوي للغة المتكلمة، تعذر على السامع فهم كلامه، او قبوله. وان الاستعداد لقبول هذه المعايير استعداد اجتماعي مثلما فهمه سيبويه: ((فالمجتمع يتحكم بالكلام بطريقتين؛ اولاً: عن طريق تحديد مجموعة من المعايير Norms نتعلم كيفية الالتزام بها وثانياً: يوفر المجتمع الدوافع motivation الضرورية لحثنا على الالتزام بهذه المعايير بمهارة))[٣٢].

**ثالثاً: ضوابط البنية المستقيمة عند سيبويه وموارد توجيهها:**

تلمس سيبويه في تحليله النحوي منهجية مطردة تعتمد على موارد فهم واسعة، مع الملاحظة والرصد الدقيق والتتبع لكلّ ما يتعلق بالظاهرة اللغوية المدروسة –بنية، وتركيباً، ودلالة، ومقاماً، ووظيفة، ليجعل التحليل صورة لنظام اللغة المرتكز في اذهان ابنائها.

وقد تتبع الباحث مواضع تلك المنهجية في كتاب سيبويه، ليبين اثرها في الحكم على كل بنية مستوفية لشروط النظام النحوي وقوانينه وتقويمها على وفق تلك الشروط، والضوابط، وعلى النحو الآتي:

١-حسن السكوت:

وهو من المصطلحات التي وردت عند سيبويه مع مصطلحات تقويم البنية من نحو: المستقيم، والمحال، والكذب، والرديء، وبها أشار إلى كلّ تركيب بنيوي صحيح او غير صحيح. ((فكل جملة تامة تنتهي بسكوت))[٣٣].

ولهذا السكوت مظهران هما: تمام الفائدة، وأمن اللبس. فالمتكلم يسكت اذا عرف ان مخاطبه فهم قوله، أي انه ينقطع عن اكمال كلامه اذا تحقق غرضه، وهو ابلاغ المخاطب.

يقول سيبويه في باب النداء: ((...هل رأيتم شيئاً موصوفاً لا يسكت عليه؟ فقيل لهم: نعم، يا أيها الرجل. الرجل وصفٌ لقوله يا أيها، ولا يجوز ان يسكت على أيّها. فربّ اسمٌ لا يحسن عليه عندهم السكوت حتى يصفوه، وحتى يصير وصفه عندهم كأنه به يتم الاسم..))[٣٤]. فالصفة والموصوف هنا بمنزلة اسم واحد، ولا يمكن السكوت على جزء منه؛ تجنباً للابهام واللبس.

وقد استعمل سيبويه المصطلح مع المستقيم معياراً في كون الجملة صحيحة ومفهومه، قال: ((ألا ترى انك لو قلت: فيها عبد الله، حسن السكوت، وكان كلاماً مستقيماً، كما حسن واستغنى في قولك: هذا عبد الله، وتقول: عبد الله فيها، فيصير كقولك: عبد الله أخوك؛ الا ان عبد الله يرتفع مقدما كان، او مؤخراً بالابتداء))[٣٥].

٢-نظرية العمل النحوي:

يحكم سيبويه باستقامة الكلام اذا جاء منتظماً على وفق قوانين نظرية العمل النحوي التي سيطرت على منهجه التحليلي في الكتاب، ويستثنى من ذلك ما ردّه الاستعمال، لان الاستعمال اللغوي عنده حجة وفوق كل التفسيرات.

قال: ((ولا يجوز ان تقول: ما زيداً عبد الله ضارباً، وما زيداً انا قاتلاً؛ لانه لا يستقيم في كان وليس، ان تقدّم ما يعمل فيه الآخر، فان رفعت الخبر حسُن حمله على اللغة التميمية))[٣٦]. وكذلك لم يستقم الكلام عنده في حال الفصل بين العامل والمعمول بالصفة، قال: ((...وان وصفته فقلت: مررت برجلٍ حسّنٌ ظريفٌ أبوه، فالرفع فيه الوجه والحدّ، والجرُّ فيه قبيح، لانّه يفصل بوصفٍ بينه، وبين العامل))[٣٧].

٣-القياس:

يحتكم سيبويه في توجيهه النحوي إلى القياس –احياناً-، ويجعله فيصلاً للحكم على صواب بنية لغوية من عدمه. ولكن القياس الذي يعتمده سيبويه هو القياس المرتكز على اطراد الظاهرة اللغوية في النصوص المروية، او المسموعة. يقول في حديثه عن أيّ: ((هذا باب مجرى أيٍّ مضافاً على القياس، وذلك قولك: اضربْ أيهم هو أفضل، وأضرب ايّهم كان أفضل، واضرب ايّهم ابوه زيدٌ. جرى ذا على

القياس؛ لان الذي يحسن هاهنا. ولو قلت: اضرب ايّهم عاقل رفعت،؛ لانّ الذي عاقل قبيحة. فإذا أدخلت هو نصبت؛ لانّ الذي هو عاقل حسنٌ. الاقوى انك لو قلت: هذا الذي هو عاقلٌ، كان حسناً.

وزعم الخليل –رحمه الله- انه سمع عربياً يقول: ما انا بالذي قائلٌ لك شيئاً، وهذه قليلة، ومن تكلم بهذا فقياسه: اضربْ أيّهم قائل لك شيئاً))[٣٩].

٤-حسن التأليف:

فقد يحسن الكلام، ويقبح وفقاً لنظام التأليف الذي اقرّته مواضعات اللغة، ونظامها النحوي. لذلك يرى سيبويه ان للكلام مواضع اذا تغيرت لا يحسن التركيب، ولا يستقيم معناه ابداً. وذلك نحو قوله: ((..وقبح ان تقول: فيها قائمٌ فتضع الصفة موضع الاسم..))[٤٠]. وقال: ((ليس كل موضع تدخل فيه الفاء يحسن فيه الجزاء))[٤١].

٥-سياق الحال:

لسيبويه ريادة في هذا المنهج من مناهج التحليل اللغوي؛ اذ كان منذ ذلك الزمن المبكر يلجأ إلى هذا النوع من التحليل، بطريقة تماثل ما يتبناه اللغويون الوظيفيون المعاصرون[٤٢].

يقول سيبويه: ((...فإذا قلت: كان زيد فقد ابتدأت بما هو معروف عنده مثله عندك، فإنما ينتظر الخبر. فإذا قلت: حليماً، فقد اعلمته مثل ما علمتَ. فإذا قلت: كان حليماً؛ فانما ينتظرُ ان تعرّفه صاحب الصفة، فهو مبدوء به في الفعل، وان كان مؤخراً في اللفظ. فان قلت: كان حليمٌ أو رجلٌ فقد بدأت بنكرةٍ، ولا يستقيم ان تخبر المخاطب عن المنكور، وليس هذا بالذي ينزل به المخاطبُ منزلتك في المعرفة، فكرهوا ان يقربوا باب لبسٍ))[٤٣].

فان التصور الوظيفي الذي ورد في قول سيبويه هو ان المتكلم يبدأ بالمعلومة المعروفة عند المخاطب، ومن ثم يذكر المعلومة الجديدة التي من اجلها جاء الخطاب وهي الخبر، وبخلاف ذلك يستحيل الفهم، وتنعدم الفائدة من الكلام فلا يستقيم. ومن هنا انكر النحويون الابتداء بالنكرة.

٦-الحمل على المعنى:

يحسن الكلام عند سيبويه ويستقيم اذا كانت البنية التركيبية تحيل إلى معنى؛ لان المعنى غاية الفهم لديه. فإذا خالف ظاهرها قواعد النحو احال التوجيه إلى المعنى، وحكم على الكلام بالاستقامة وفقاً لمعناه الموافق لاستعمال اهل اللغة. قال: ((واما قوله شيء جاء بك فانه يحسن، وان لم يكن على فعل مضمر؛ لانّ فيه معنى ما جاء بك الا شيء. ومثله مثل للعرب: شرٌّ أهرَّ ذا ناب))[٤٤].

تلك هي اهم موارد الكلام المستقيم في تحليل سيبويه وتوجيهه لاغلب التراكيب الواردة في الكتاب، وعلاقاتها بالابواب النحوية المختلفة. وقد اقتصرنا على عدد من اقواله لنثبت بها ان طريقة سيبويه في التحليل طريقة رائدة، قامت في اطار نظرة تداولية غير شكلية يمكن بها معرفة مواضع الاستقامة في الكلام من باب غير باب الاعراب.

## خاتمة البحث ونتائجه :

مما يلاحظ في توجيهات سيبويه النحوية انه لم يكن بعيداً عن افرازات عصره الثقافية والفكرية. لذا نجد فكره النحوي مزيجاً من وصفية عالية ومنطقية مرتفعة. الا ان الاتجاهين متلازمان في منهجه.

فاللغة التي تعامل معها سيبويه هي لغة اداء ثبت نظامها، وانصهرت في كونها الاصطلاحي جميع الدلالات، وكذلك الشيوخ الذين تتلمذ عليهم هم من عباقرة اللغة، ويكفيه فخراً الخليل –رحمه الله- وحده. ولذلك انتظم عقله مع مكونات تلك البيئة انتظاماً طبيعياً فجاءت افكاره منتظمة ومتسقة ايّما اتساق. اذ هو يصف، ويحلل، ويحكم مساوقاً بين نظام اللغة الذاتي، والملابسات الخارجية المؤثرة في التواصل اللغوي.

ويبدو ان سيبويه كان ذا غاية، وهدف هذه الغاية هو وضع وصف تام للغة معتمداً منهجاً يحيط بالظاهرة المدروسة من كل جوانبها، فيجعل التحليل صورة موازية لمدارك ابن اللغة، والمكتسب، وهو في الآخر يضع خطوطاً هادية لتعلم النحو عند الاثنين.

من هنا سأسجل نتائج البحث في ضمن تصورين: عام وخاص. فاما التصور العام فهو ان منهجه في التحليل ذو نظرة تأملية لم نجدها عند غيره من النحويين سوى القليل منهم نحو: ابن جني وابن هشام،

والرضي الاستراباذي وعبد القاهر الجرجاني. ومركز هذه النظرة هو المعنى؛ لذا انشغل سيبويه بالمعاني، وتلمس اليها طرائق تحليل متنوعة، تحيط بالظاهرة المدروسة، وتنظر في جميع علاقاتها، وبطريقة تماثل –اليوم- مناهج النظر النحوي عند اللغويين المعاصرين، منهم الوظيفيون على الوجه الاخص.

واما التصور الخاص فيتعلق بمصطلحات البنية المستقيمة في نظر سيبويه النحوي التي نقلها من باب المقاييس الاجتماعية للسلوك إلى باب النحو ليحكم على كل بنية لغوية.

وقد مهّد لهذه المصطلحات في مقدمة كتابه بأمثلة دالة، ثم اطردت في تحليلاته للتراكيب النحوية في الكتاب. وكان المستقيم هو الاعلى في سلّم درجات الدلالة لهذه المصطلحات للحكم على بنية مفهومة تحقق التواصل في الخطاب بين المتكلم والسامع.

وقد تتفاوت هذه الاستقامة بحسب تفاوت سلامة التركيب. فقد يكون حسناً اذا تحقق ذلك التواصل بدرجة تامّة. وقد يكون كذباً اذا خالف الواقع، وقد يكون قبيحاً عندما يوضع اللفظ في غير موضعه، وينزّل غير منزلته فيتعذر الفهم، ولا تتحقق فيه شروط القبولية النحوية، وغاية الابلاغ.

من هنا نفهم ان سيبويه قدح اوّل شرارة في البحث اللساني عند العرب فدرس الظاهرة اللغوية من باب غير باب الاعراب.

## الهوامش :

(١)النساء: ٨٢.
(٢)الفاتحة: ٥.
(٣)الشورى: ٤٢.
(٤)الجن: ٧٢.
(٥)الكتاب: ٢٥/١، ٨٤/٣، ٢٢٥/٤.
(٦)الكتاب:١٣٨/١، ٣٤٣/٢، ١٠٩/٣.
(٧)الكتاب:٧١/١، ٣٠٢، ٣٩٨، ٢٥/٢، ٢٨٢، ٢٨٤، ٢٩٠، ٤٦/٣، ١٧٢.
(٨)الكتاب:٤٨/١، ٧١، ٢٦١، ٢٢٥/٢، ٣٧٥، ٣٨٩، ٣٩٧، ٥٩/٣، ١٣٣، ٢٩٥، ٣١٦.
(٩)الكتاب: ٢٥/١.
(١٠)ينظر: المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
(١١)ينظر: نحوي عربي من القرن الثامن للميلاد/٣١.
(١٢)نفسه/٢٩.
(١٣)نفسه/٣١.
(١٤)علم اللسان/٤٤٢، نقلاً من مفهوم الجملة عند سيبويه/١٦٧.
(١٥)نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث/٨٨.
(١٦)نحوي عربي/٣٢.
(١٧)الكتاب:٢٦٥/١-٢٦٦.
(١٨)الكتاب:٥٥/٣-٥٦.
(١٩)ينظر: مفهوم الجملة عند سيبويه/ ١٦٤.
(٢٠)طبقات النحويين واللغويين/١١١.
(٢١)نحوي عربي/٣٠.
(٢٢)الكتاب: ٨٠/٢.
(٢٣)نظرية النحو العربي/٨٩.
(٢٤)ينظر: التفكير اللساني في الحضارة العربية: ١٢٨.
(٢٥)ينظر:مفهوم الجملة عند سيبويه/١٥١.
(٢٦)الكتاب: ٢٥/١.
(٢٧)الاقتضاء في التداول اللساني/١٤٦.
(٢٨)الكتاب: ٨١/٢-٨٢.
(٢٩)الكتاب:٣١/١.
(٣٠)ينظر: الكتاب: ٢٦/١.
(٣١)الكتاب: ٢٧٠/١.

(٣٢)علم اللغة الاجتماعي: ٢٠٤.
(٣٣)نحوي عربي: ٣٣.
(٣٤)الكتاب: ١٠٦/٢.
(٣٥)الكتاب: ٨٨/٢.
(٣٦)الكتاب: ٧١/١.
(٣٧)الكتاب: ٢٩/٢.
(٣٨)ينظر: اصول التفكير النحوي: ١٣.
(٣٩)الكتاب: ٤٠٣/٢-٤٠٤.
(٤٠)الكتاب: ١٢٢/٢.
(٤١)الكتاب: ٩٧/٣.
(٤٢)نظرية النحو العربي: ٨٨.
(٤٣)الكتاب: ٤٧/١-٤٨.
(٤٤)الكتاب: ٣٢٩/١.

## مصادر البحث ومراجعه:

١- أصول التفكير النحوي، الدكتور علي ابو المكارم، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣.
٢-الاقتضاء في التداول اللساني، د.عمر فاخوري، عالم الفكر، مجلد ٢٠، عدد ٣، الكويت ١٩٨٩.
٣-التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدكتور عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، ط٢، ليبيا، ١٩٨٩م.
٤-طبقات النحويين واللغويين، ابو بكر محمد بن الحسن الزبيدي تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٧٣م.
٥-علم اللغة الاجتماعي، د. هدسن، ترجمة الدكتور محمود عبد الغني عياد، مراجعة الدكتور عبد الامير الاعسم، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٧.
٦-كتاب سيبويه، ابو البشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مطبعة المدني، نشر مكتبة الخانجي، ط٣، القاهرة، ١٩٨٨م.
٧-مفهوم الجملة عند سيبويه، حسن عبد الغني محمد جواد، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية، الجامعة المستنصرية، ١٩٩٩م.
٨-نحوي عربي من القرن الثامن للميلاد –دراسة عن منهج سيبويه في النحو، مايكل جي كارتر، ترجمة: عبد المنعم آل ناصر، مجلة المورد، مجلد: ٢٠، عدد: ١، العراق، ١٩٩٢م.
٩-نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، الدكتور نهاد الموسى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، بيروت، ١٩٨٠م.

## Abstract

### Al-Kalam Al-Mustaqeem in the Grammatizal Perspeetic of Sebawaiyh : A study in Terminology and its Use .

The present paper is an attempt to have deep insight into Seebawaiyh's grammatical perspective which is an advanced example of grammatical analysis and methodology of study .

Seebawaiyh tried to investigate the structural and semantic foundations of the linguistic system and to take them into account in his formulating of a system of grammar . Furthermore he tried to link the socinl and moral structures with language and its grammatical system .

This paper investigates the term " Al- Mustaqeem " and its use to Seebawaiyh and its related idiomatic indicatives which have an important pertaining to the process of communication between the speaker and listener .